2

حكايات أندلسية للأطفال

سر الساعة

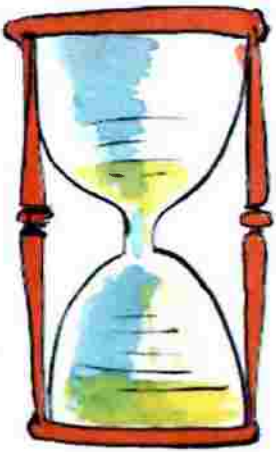

بقلم

دكتور حسين مؤنس

رسوم

عمرو أمين

دار الرشاد

كان (عباسُ بن فرناس) يَخرُجُ من مَدْرَسة القَصْرِ كلَّ يومٍ بعدَ صلاة الظُّهر ، ويَذْهَبُ إلى دُكَّان عمِّه في سُوق الورَّاقين ، التي يَبيعُونَ فيها الكُتُبَ في قُرْطُبة . وكانت سنُّهُ قد بَلَغَت العاشرةَ .. وأصبح صبياً لَطيفاً يُحبهُ كلُّ الناس ، لأنَّه كان مُؤدَّباً يَحْتَرِمُ الكبارَ ، ويَأنَسُ إليه أصْدقاؤه ، ورِفاقُهُ في الدرسِ .. وإذا حَدَثَ بَيْنَهُمْ خِلافٌ .. كانوا يَحْتكمُون إليه بسببِ ما عَرفُوا فيه من عَقلٍ راجحٍ ونَفْسٍ طيّبة وابتعادٍ عن الخُصُومات .

وكان (عباس) يَقْضِي مُعْظَمَ وقتِه في القراءة والتَّأمُّل .. ويُحبُّ البقاءَ في دُكّانِ عمِّه إلى وقتِ المغرب ، فَيتغدَّى مَعه ، ويَبْقَى في الدُّكَّان إذا غابَ العمُّ لبعضِ شأنِه .. وكان عمُّهُ يَثِقُ في رجاحَةِ عقلِه ، ويقظتِه ، ودِقَّة

مُلاحظاته .. فكان لا يَفُوتُه شئٌ مِمّا فى الدُّكَّان ، ولا يَسألُ أحدٌ عن كتابٍ مَوْجودٍ إلاّ جاءهُ به .

وقد لاحَظَ (عباس) أنَّ النَّاسَ يحرِصُون عَلى مَعْرفة الوقت ، وكانَتْ هُناك (مِزْوَلَةٌ) كَبيرةٌ وضَعَها تاجرٌ كبيرٌ إلى جانب بابِ دكَّانه القريب من دُكَّان عمِّه . وكان (عباس) يَرَى الناسَ يذهبون ليَرَوْا الوقت فى المِزْوَلَة طُولَ النَّهار ..

وقال (عباس) فى نفسه : ولماذا لا أُحاولُ أنْ أصنَع (مِزْوَلَةً صَغيرةً) تُوضَعُ فى الجَيْب ؟

إن المِزْوَلَة عبارةٌ عن قارُورَتَيْن من زُجاجٍ يُوصِل بَيْنَهُما عُنُقٌ طَويلٌ ، ضيِّقٌ جداً ، وكلُّ قارُورةٍ مقسَّمةٌ إلى اثْنَى عشر قسماً بخُطوطٍ سَوْداءَ أُفُقيَّة .

وكلُّ خطٍّ يُمثِّلُ ساعةً منْ ساعاتِ النهارِ أو اللَّيلِ الاثنتَىْ عشرةَ .. وكانوا يضعُون رملاً أبيضَ ناعماً جداً فى القَارُورة السُّفْلى ، ويملأُونها إلى الخطِّ الثانى عشرَ . وعند طلوعِ الشمسِ يَقْلبُون المِزْولةَ فتُصْبحُ القارُورةُ الَّتى فيها الرَّملُ فى أعْلى ، ويأخذُ الرَّملُ فى الهُبوطِ منَ العُنقِ الطَّويلِ إلى القَارُورة السُّفْلى، وهى مُرقَّمةٌ أيضاً ، فيعرفُ الناسُ السَّاعةَ بالنظرِ إلى الخطِّ الذى وَصَلَ إليْه الرملُ الأبيضُ فى القارُورةِ السُّفلى .

وذهب (**عباس**) إلى مصنعِ الزُّجاجِ خارجَ قُرْطبة ، فوجدَ أنَّهم يَصْنعون فيه قوارير صغيرةً للعُطُور ، فاشْتَرَى اثنتيْن ، وعادَ إلى دُكَّان عمِّه ، وأخذَ يُجَرِّبُ .. فقسّمَ إحْدَى القارورتَيْن إلى اثنَىْ عشر قِسْماً مُتساويةً .. ووضعَ

عَليها خُطوطاً كَتَبَ عَليها الأرقـامَ من واحدٍ إلى اثنَىْ عَشَرَ بحيث يكونُ رقم « واحد » أسْفلَ القارُورةِ ، يليهِ رقم اثنيْن وهكذا إلى رقمِ اثنَىْ عشرَ .

ثُمَّ صَنَع أُنْبوباً رفـيعاً من (الطَّفْل) ونَقبَهُ بإبْرةٍ طَويـلةٍ ، بحيثُ أصبحَ فيه مَجرىً طويلٌ ضيِّقٌ يَسْمَحُ للرَّملِ بالمرورِ بحسابٍ دقيقٍ ..

وَمَلأَ القارُورةَ الأخرى رمـلاً .. ووضع الأنْبوبَ الرفيعَ بين القارُورتيْنِ بحَيْثُ تَكونُ القَارُورةُ المملوءةُ رملاً إلى أعْلَى ، وذَهَب إلى المزولَة الكبيرة ..

وأخذ يُراقبُ هُبُوطَ الرَّملِ من قارُورته الصَّغيرة .. ويُقارن ذلكَ بهُبُوطه فى المِزْوَلةِ الكَبيرةِ ، ومـازال يُجرِّبُ ويُضيِّقُ سعةَ مَجْـرى الأُنبُوب حتى صار

ما يَنْزِلُ من الرمْلِ فى القارُورةِ السُّفلَى فى مُدَّةِ ساعةٍ يَصلُ بالضَّبط إلى الخطِّ رقم « ١ » ثمَّ الخطُّ رقم « ٢ » بعدَ ساعةٍ أُخْرى .. وهكَـذا حتَّى ضَبَطَ سَعَةَ مَـجْرى الأنْبـوب وحَسِـبَ وقتَ هُبوطِ الرَّملِ .. وعَـرفَ كَـمِيَّـةَ الرَّملِ التِى ينْبغى أنْ يَضَعَها .

فلمَّا أتمَّ ذلكَ أتَى بعـشْرِينَ قارُورةً ، وصَنَعَ عَـشْرَةَ أنابيب رفيـعة ، فى كلٍّ منهـا مَـجرىً مـثلَ مَـجْـرى الأنْبوب الأوَّل . ورقَّمَ كلَّ الأنـابيبِ بعنايةٍ شَديدةٍ ، بحيثُ أصْبحَتْ كلُّها مُتعادلةَ الخُطوطِ والأرْقامِ غاية فى الدِّقَّة .

وقام بَعدَ ذلك بتـثْبيتِ أنْبوبٍ رَفيعٍ بين كـلِّ قارُورتيْنِ بغايةِ الإحْكامِ ، بعدَ أنْ وضعَ فى القارُورةِ العُلْيا المِقْدارَ المضْبُوطَ من الرَّملِ الناعمِ الجافِّ ، ثم

أتمَّ ضَبْطَ إقْفالِ الأنابيبِ عَلى فُوَّهاتِ القوارِيرِ ، بعد أنْ راقَبَ وقتَ مُرورِ الرَّملِ بغاية الدِّقَّةِ والإحكام .

***

وبهذا صَنَعَ عَشْرَ ساعاتٍ صغيرةٍ ، كلٌّ مِنْها مِزْوَلَةٌ يُمْكن أن تُوضَعَ فى الجَيبِ . وأخذَ واحدةً وأراها لعمِّهِ ، فَأُعْجِبَ العمُّ بدقةِ هذا الصبىِّ وصبرِهِ ومَهارَتِهِ فى عملِ الأشْياءِ بِيدَيْهِ .. وكان عمُّه يُشارِكُهُ الولَعَ بعُلومِ الطَّبيعةِ والكيمياءِ والحيلِ ، وهى علمُ الميكانيكا .

وذهبَ (**عباس**) مع عَـمِّه إلىَ أبيـهِ وأطْلَعَـاهُ على هذا الاختـراعِ العجيب الصَّـغير : مِزْولةَ جَيْبٍ يَضَعُهـا الإنْسانُ فى حِزامِ « **قفْطَانِه** » أو فى جَيْبِـهِ ويُخْرجُها كُلَّما أرادَ أنْ يَعْـرفَ الوقْتَ .. وعندَ غُروبِ الشَّمسِ تُدَارُ المِزْوَلةُ فتُصْبحُ القارُورةُ المَليئةُ فى أعْلىَ لتَحْسُبَ ساعاتِ اللَّيل .

ودُهِشَ أبُوه (سُـلَيْمان بنُ فِرناس) لذلك ، ولكنَّهُ هزَّ رأسَهُ وقال :

ـ هكـذا يـا أخِـى عَـبْدَ الرَّحمـن ، تَـدَعُ هذا الغلامَ يُنْفِقُ وقـتَهُ فِيما لا ينْـفـعُ .. أما كـان الأوْلَـى به أنْ يُنْـفِقَ هذا الوقْتَ فى دِراسة التَّفْـسيرِ أو الحَديثِ أو اللُّغة ؟

ويقولُ العمُّ :

ـ لا يَشْغَلْ بَالَكَ هذا الأمرُ يا أخى ، فإنَّ ابْنَك (عباس) لاينْصَرِفُ إلى تَجارِبِه إلاَّ بعدَ أنْ يُتِمَّ واجِبَهُ اليومىَّ مِنْ عُلومِ الدِّينِ واللُّغة ، وهو مُتَقَدمٌ على كلِّ إخْوانِه فى ذلكَ ، وهذا كلُّه يَعْمَلُه فى وقتِ فراغِه ، بدلاً من أن يُنْفِقَ كلَّ وقتِه فى اللَّعبِ والجَرْى فى الأسْواقِ كَما يفْعلُ أقْرانُه .

وهزَّ الأبُ رأسَهُ ولم يَقُلْ شَيْئاً .

وفى يَومٍ من الأيّام .. حينَ كانَ الأبُ جالساً فى القَصرِ يُراجِعُ أوراقهُ ، جاءهُ خادمٌ من خَدَمِ السلطانِ يَدْعُوه لمُقابَلة الأميرِ عبدِ الرحمنِ ابن الحكمِ سُلْطانِ الأندلسِ .

وأسْرَعَ الأبُ لمُقابلة السُّلطان ، ودَخل علَيه فَوجدَهُ جَالسًا ، وأمامَهُ على مائدة مزْوَلَةٌ جيب جَميلةٌ .. وقال السُّلطانُ :

ـ يا سليمانُ .. هَلْ هذه من صُنْع ابْنكَ ؟

فارْتَبك الأبُ خَوْفاً منْ أنْ يكُونَ ذلكَ قد أغْضَبَ السُّلطانَ وقال :

ـ وماذا أعْملُ لذلكَ الغُلام الذى لا يكُفُّ أبداً عَن هذا اللَّعب ؟

فقالَ الأميرُ :

ـ أتُسَمِّى هذا لَعباً يا (ابن فرْناس) ؟ هذا هو عيـنُ الجدِّ يا رجُل .. هذه المزْوَلَةُ الصَّغيرةُ شَئٌ هامٌّ جدًا ، لقد أتانى بها خادمٌ من غلْمانى ، رآها مع ابْنك فأرادَ أنْ يُتحفَنى بها ، لعلْمه بحرْصى على ضَبْط الوقْت لتنْظيم أعْمالى وحساب وَقْتى ، فَلمَّا فَحصْتُها وَجدْتُّها أدقَّ من مـزْولَة القَصْر ، التى أضْبطُ بها كل شَئٍ الآن :

مواعـيدَ الصَّلوات ، والمُقَـابلات ، وتَسْييـرَ الجُيوش ، ووصـولَ رسائل

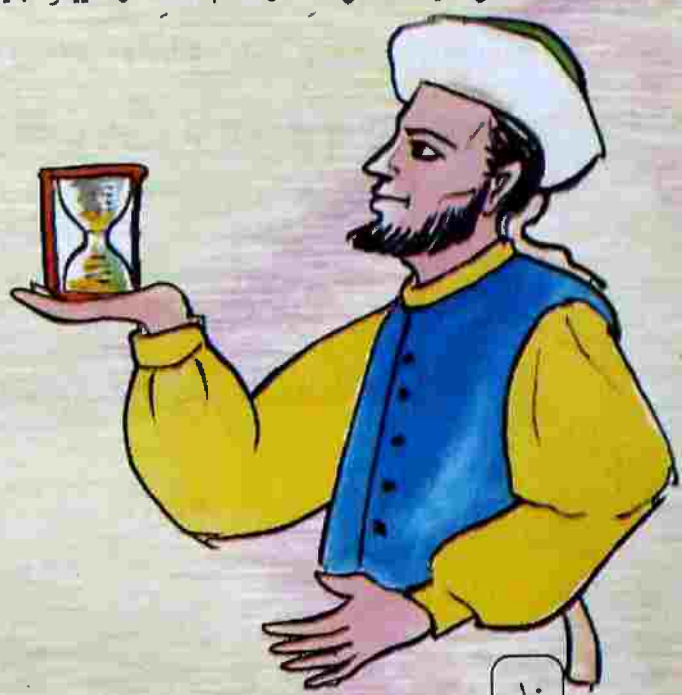

الحَمامِ الزَّاجِلِ ، وكل شَئ ..وأنا الآنَ أُريدُ منْك أنْ تأتينى بهذا الغُلامِ الذَّكىِّ ، فسيعْمَلُ معى فى القَصْرِ تحتَ رعايَتى .. كمْ سِنُّ ابنكَ هذا ؟

ـ عشْرُ سَنَوات يا مَوْلاى .

ـ آه ذَكَرْتُهُ إنَّه الغُلامُ الَّذى جَاءَ بفكْرَةِ عَمَلِ المصَاحف .. ألاَ يَدْرُسُ هَذَا الغُلامُ فى مَدْرَسَةِ القَصْرِ مَعَ أوْلاَدِنَا .. ؟

ـ أجَل يا مَوْلاَى .

ـ ومَاذا دَرَسَ مِن عُلُومِ الدِّين ؟

ـ حَفظَ القُرْآنَ .. وهو يَدْرُسُ الآن التَّفْسيرَ والحديثَ واللُّغَةَ ..

ـ هَذَا غُلامٌ نَجيبٌ .. وهو فَخْرٌ لا يَنْبغى التَّفريطُ فيه .. سَأزيدُ الآنَ من رعايَتى له ، وسَأُوصى مُؤَدِّبيه بأنْ يَجْتَهدُوا فى تَنْميَةِ مَواهبه ومَلَكاته حتى نَفيدَ منْها .. وسَأقَدِّر له راتباً ، فَأتنى به مِنَ الغد إنْ شاء الله .. قُلْتَ لى : إنَّ اسْمَهُ (عبَّاس) ؟

ـ نعم خادمُك عَبَّاس ..

فقال الأميرُ :

ـ عباسُ بن فِرْناس .. هذا اسمٌ سيعرفُهُ كلُّ الأندَلُس جميعاً بعدَ

قليلٍ . وسنرى كيفَ نُكلِّفُهُ بحلِّ مشاكلِنَا الكثيرةِ فى أُمورِ الآلاتِ والأسلحةِ وكلِّ ما نحتاجُ إليْه .

وكان (عباس) ذا ولَعٍ بصُنْعِ الطَّائراتِ الورَقيَّةِ وتَطْيِيرِهَا فى الجوِّ ، مَثَلُه فى ذلك مَثَلُ غيرِه من الأولاد ، ولكنَّهُ كانَ ماهراً جداً فى عَملِ هذه الطَّائرات ، فكانَ يَشُقُّ الغابَ الطَّويلَ عصياً طويلةً غايةً فى الدِّقة ، ويُحكِمُ عَمَلَ هَيْكَلِ الطَّائرةِ فى شكْلٍ مُسَدَّسٍ له ستةُ أذْرُعٍ ، ثُمَّ يَبْسطُ عليه فَرْشًا حَريريًّا رَفيعًا جدًا ويُحكِمُ ضَبْطَ العَمَلِ ، ثم يَختار خُيوطاً من القطنِ الرفيعِ يَغْزِلهُ بنفسه على مِغْزَلٍ يَدَوى ..

وكان عمُّه يتعجَّبُ من دقَّته فى العَمَلِ وصَبْره الطَّويلِ علَيه ويَقولُ له :

ـ (يا عباسُ) .. لماذا تُنفِقُ وقتَكَ فى هذا اللَّعب ؟ إنَّ الطائراتِ تُباعُ

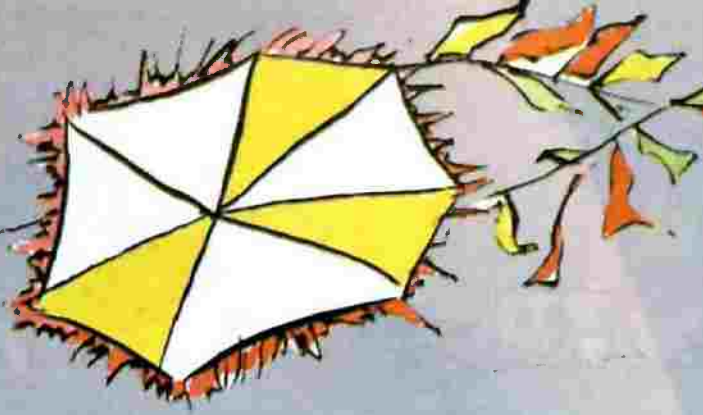

فى السُّوق بسعر درْهَم للواحدة ، فتُنْفقُ أنتَ أيَّاماً فى صُنْعها ، وأياماً فى تَجْربَتها ، ولا تزالُ تُجرِّبُ وتُطيلُ الذيلَ وتقصرُهُ ، وتُضيفُ إليه وترْفَعُ منه ، حتى يَنْقَضِى اليومُ وأنتَ فى هذا اللَّهوِ .. أمَا كانَ الأفْضلُ لك أنْ تُنْفِقَ الوقتَ فى الحفظ والدرس ؟

فيقولُ (عباس) :

ـ يا عمِّى .. إنَّ أترابى يَحْفَظُون فى اليوم صَفْحةً من المصْحف ، وأنا أحفظُ ثلاثاً ، وهُم يقْرءونَ مع الشَّيْخ قِطعةً واحِدةً ، وأنا أقْرأُ أرْبَعاً وأحفَظُها فماذا تُريدُ منِّى فَوقَ ذلكَ ؟

فينْظرُ إليْه عمُّه فى حُبٍّ وإعْجاب ، ثمَّ يقُول :

اذهبْ (يا عباس) والْعَبْ كما تُريدُ ، ولكنْ لا تَنْسَ أن تُعيدَ تَرتيبَ كُتُب النَّحو التى أفْسَدَ ترتيبَها علَينا ذلكَ الوَرَّاق المغْربىُّ الَّذى كانَ هُنَا هذا الصَّباح ..

ـ رتبتُهَا يا عَمّى . وقد لاَحظتُ أنَّ واحداً منْها غيرُ موْجُود كتابُ « أسماء النَّبات » للأصْمَعِىِّ . لا بُدَّ أن نَسْأله عنْهُ .. ففكَّرَ

الشَّيخُ قَليلاً .. ثم ابتَسمَ وقال : إذن تُذَكِّرُهُ به غداً (**ياعباس**) .

فقالَ (**عباسُ**) :

ـ يا عَمِّى هذا كتـابٌ صَغيرٌ فى أربعينَ ورقـةً ، فإذا كانَ هذا الوَرَّاقُ قد طَمِعَ فيـه أو أخَذَهُ مَعَهُ فلا ضَـرورةَ لإحْراجِه ، لأنَّه أكبـرُ عُمَلائكَ فى المغْرِب ، وليسَ من صالحِنا أنْ نُنَبِّهَهُ إلى شَيْءٍ صَغيرٍ كَهذا .

فَضَحِكَ الشَّيخُ وقالَ :

ـ يا لَكَ مِـنْ غُـلامٍ أريبٍ يا (**عباس**) ، واللهِ لَقَـد أَدْرَكْـتَ مـا لم يدركْهُ عمُّك .. اذْهبْ يا بُنَىَّ وافْعَلْ ما شِئْتَ ، فما أَرَى إلاَّ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وهَبَكَ عَقْلاً وفَهْماً فَوقَ سِنِّك .

وفِى اليـومِ التَّـالِـى ذَهبَ (**عبـاس**) معَ وَالِـدِه إلى القَـصْرِ لمقابلةِ الأميرِ الذى أثنَى علَى (**عباس**) وقال لَهُ : امْضِ يا بُنَىَّ فى طَرِيقكَ ، واللهُ يُوفِّقُك . ثمَّ التَفَتَ إلى أحَدِ رِجالِه وقال :

ـ ليَكُن (عباس) فى رِعَايتكُمْ .. أعْطُوه راتباً شَهْرِيّاً قَدْرُهُ عَشَرةُ دَنانير ليَشْتَرى بها ما يُريدُ من الأدَواتِ والكُتُبِ ، وإذا احْتاجَ إلى أكْثَر من ذلك فَأَعْطُوه ما يطلُبُ .

ثم نَظَر إلى (عباس) وقال :

ـ امْضِ أنت الآن (يا عباس) ... استَمِرّ فى دَرْسِكَ فى مَدْرَسَةِ القَصْرِ .. وامْضِ كَذلكَ فى اخْتِراعاتك .

ولا تَنْسَ أنْ تُطْلِعَنى على ما تَعْمَلُ وتَخْتَرِعُ .. فَإنِّى أُحِبُّ الرَّجُلَ الذَّكِيَّ المفكِّرَ الذى يَخْتَرِعُ ويَبْتَكِرُ .. وأنا أحبُّ كُتُبَ الفيزياء والكيمْياء مثلك ، ولَكنَّ شُئُون المُلْك تحولُ بيْنى وبَيْن الانْصراف إلى قراءتها .. فَإذا عَثُرْتَ عَلَى شَئٍ طَريفٍ مِنْها فَتَعالَ إلىَّ به ، لتَقْرأ عَلَىَّ منه ما يتَّسعُ لهُ وقْتى . اذْهَبْ مَعَ سَلامَةِ الله يا بُنىَّ !

الناشـــــر : **دار الرشـاد**
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٥٦٠١ / ٩٧
الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 45 - 9
تجهيزات وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــوان : ١٠، ٧ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : **آرس للكمبيوتر**
العنـــــوان : ٣٢ شارع عبد اللطيف مجلس الأمة
تليفـــــون : ٧٩٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثانية : ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م (الأولى للدار)
الطبعة الثالثة : ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م (الثانية للدار)